رقـــصـــة التنـورة

ناصـــــر الربّـاط*

كانت السيارة كعادتها متوقفة في نهاية الشارع. سطحُها مغبرّ، ولونُها كالح، وأنوارُها مطفأة، وقد تقشّرتْ عن جوانبها بعضُ حروف الشّعار، ولم يبقَ من عبارة وزارة الثقافة سوى جملة غامضة تُشْبه ثغاءَ طفل رضيع «و رة لث ا ة.» وبدا شبحُ عم عيد السائق بداخلها غارقًا في دخان سيكارته. كانت الساعة الثامنةَ إلاّ ربعًا تمامًا، فأنا لا أحبّ التأخّر عن مواعيد العمل والعم عيد يعرف ذلك ويقدِّره فيّ، ولذلك فهو يأتي إليّ قبل أفراد الفرقة الآخرين، الذين يتجمّعون عادةً على القهوة بعد الإفطار مباشرةً ويَشْربون الشايَ ويدخّنون نَفَسَ جوزة قبل أن نمرّ بهم ونأخذهم. دخلتُ السيارة ومسّيتُ على عم عيد، الذي ردّ على تحيّتي بهمهمة مبهمة، ونَفَخَ بَعدها الدخانَ من صدره باتجاهي كأنّما كان ذلك استمرارًا للتحية. فأدرتُ رأسي لأنّي لا أحب تنشُّقَ دخان السكائر، خاصةً قبل العرض؛ فأنا بحاجة إلى تركيز كلّ تفكيري على استعدادي لدوري بعد ساعة في قصر ثقافة الغوري.

انطلقت السيارة وقبعنا كلانا ساكنيْن في مكاننا عمّ عيد يَلْهو بعقب سيكارته يَلُوكه في فمه كأنّه يمتصّ منه آخرَ لسعته، وأنا سارحٌ مع أفكاري وغارق في تأمُّلي الضروري؛ فرقصةُ التنورة التي أؤدِّيها ساعةً تقريبًا كلَّ أمسية من رمضان تستلزم منّي تركيزًا كبيرًا، وتُنهكني في النهاية بحيث أبقى في دوار كلّ الليل كأنّي مسطول. تخيّلوا ساعةً من اللفّ الموزون على وقع الطبول وأنا أقدِّم قدمي اليمنى وأدور باليسرى حولها على الوَقْع، وأدور وأدور، وأطرافُ التنانير الملوّنة حول خصري تدور وتطير لتَبْرز من تحتها طبقاتُ الثوب الأبيض الطويل، التي تَرْتفع أيضًا ببطء بسببٍ من ثقلها وثِقَلِ طيّاتها المكشكشة، لتَرْسم في الفراغ خطوطًا منيرةً تؤطِّر دورانَ جسمي النحيلِ والمشدودِ على محوره وتلفّ حولي بأسرع من سرعتي.

اسمي ياسين عبد الوهاب، وعمري ثلاثون عامًا. موظّف في وزارة الثقافة، مهنتي راقصٌ، واختصاصي رقصُ الذِّكْر التقليدي، تعلّمتُه أصلاً بالمشاهدة من مرافقتي لأبي وأعمامي في القرية إلى حلقات الذِّكر في البندر، وأضفتُ إليه فيما بعد رقصةَ التنورة التي شاهدتُها لأول مرة تؤدّى في مصر بعد انتقالي إليها للانتظام في الجامعة. ولم أستمرّ في الجامعة طويلاً، بل تركتُ الدراسة وأنا في السنة الثانية؛ فقد أَدْركتُ عقمَ الشهادة هذه الأيام في تأمين وظيفة، خاصةً إذا كانت شهادةً في الأدب العربي، ولأنّي أيضًا افتتنتُ بالرقص. فقد أَرْسلني والدي عند مجيئي مصرَ لأول مرة إلى صديقٍ له من أيام السياحة مع الطريقة الشاذلية هَبَطَ مصرَ واستقرّ فيها وتزوّج ولكنّه بقي على الودّ، يرسل لنا كلّ عام سلةً مملوءةً من أطايب القاهرة: من قموع السكر الملوّن والشمع المعطّر، فضلاً عن الطواقي البيضاء المغزولةِ بخيوطٍ دقيقةٍ ونسخ القرآن والأدعيةِ والذِّكْر المطبوعةِ في مكتبات خط الأزهر الشريف واتّخذني العم مبروك ولدًا (فهو لم يخلِّف من زواجه)، واعتنى بي، ووَجد لي غرفةً في بيت عند عائلة مستورة قدّمتْ لي المسكنَ والمطعمَ وتنظيفَ ثيابي مقابلَ جنيْهات قليلة في الشهر. وصرتُ أَصْحب العمّ مبروك في جولاته الصوفية، خاصةً أيام الموالد الكثيرة التي تَزْدحم بها القاهرةُ في مواسم مختلفة كلّ عام.

أخذني عم مبروك يومًا إلى سماعخانة المولوية، الذين نادرًا ما يَسْمحون لزائرٍ بالحضور خوفًا من مُخْبر أو مُبلغ لأنّهم كانو شبه ممنوعين. واستغرقتني متعةُ مشاهدتهم، وأخذتْ عليّ كلّ أحاسيسي. ستةٌ منهم يرتدون الجلابيبَ البيضاءَ الناصعة والمشدودة بأحزمة جلدية عريضة حول خصورهم لتتهادى إلى أسفل أقدامهم، والطرابيشَ البنيةَ المخروطيةَ والطويلة، وهم يدورون بانتظام وهدوء في حلقةٍ حول أستاذهم المعمّم بالسواد وخَلْفهم وَقَفَ المنشدون يردِّدون نعوتَ الجلالة والنبوّة الشريفة برتابة وعمق، لكي يَبْلغوا من خلاله مرتبةَ الوجد. وبين الحين والآخر يصعِّد واحدُهم آهةً من القلب تَكْسر رتابةَ الذِّكْر وتَشْحذ حركةَ المولوية، الذين يغيِّرون من سرعة دورانهم معًا ومن دون تكلّف كأنّما هم على ترتيبٍ ميقاتي. لم أَتْركهم يومها قبل أن أَكْسب ودّهم وآخُذَ منهم وعدًا بالسماح لي بحضور اجتماعاتهم وداومتُ على ذلك كلّ السنين التسع الماضية وما أزال. تعلّمتُ منهم كيف أَدُور ساعةً وأكثر من غير أن أدوخ أو أقعَ أو أشعرَ بالغثيان. وتعلّمتُ منهم أيضًا كيف أتابع الذِّكْرَ بكلّ حواسي، وكيف أَضْبط سرعتي على وقع الغناء أو الطبل، وكيف أغيِّرها بسلاسةٍ من دون نرفزة أو توقُّفٍ عن اللفّ. وتعلّمتُ منهم كيف أعود إلى الواقع بعد ساعةٍ من الدوران وبأقلّ قدْرٍ من تشتُّت الذهن.

---

* ـ أستاذ الآغا خان للعمارة الإسلامية ـ كلية العمارة، معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (M.I.T.)

ولكنّي لم أتعلّم منهم نبذَهم لبهرج الحياة أو وَجْدَهم بالمعبود أو هيامَهم بالمُطْلق. لم أصبح واحدًا منهم، ولم أنضمّ إلى طريقتهم، لا لأنّي كنتُ ملتزمًا بطريقة أخرى كطريقة أبي وأعمامي الشاذلية، بل لأنّي تعوّدتُ عدمَ الالتزام الذي يميّزُ جيلنَا وتعوّدتُ الشكّ في كلّ شيء، ولاسيّما بعد سنتَي الدراسة في الجامعة وقراءاتي الفلسفية المتعدّدة. وبقيتُ حرًا ومتفتّحًا ومُقْبلاً على الحياة، أغبّ منها غبًا كلّ ما أستطيع وأشتهي. ولم يمنعني شكّي وعدمُ التزامي من المثابرة على الرقص مع المولوية؛ فالرقص كان قد تملّكَ شغافَ قلبي وأصبح شغلي الشاغل وسلوتي الأولى، وفيه وجدتُ نفسي. أتقنتُ «رقصة التنورة» ـ كما تسمّيها وزارةُ الثقافة لا كما يسمّيها أهلُها الذين يَصِفون دورانَهم عمومًا بـ «السلام» ـ كواحد من المولوية العتاق والمخضرمين. ولم يمكّنني تحدّي أبي وعائلتي في مشاعرهم الموروثة ضدّ الرقص، فأخبرتُهم بأنّي أُصاحِب المولويةَ وأتعلّم منهم لعلّ اللّه تعالى يَهْديني إلى السبيل القويم. ولم يمانعْ أحدٌ من أفراد عائلتي؛ فهم جميعًا أعضاء في الطريق الصوفية المنتشرة في ريفنا ويكنّون الاحترامَ للطريقة المولوية بسبب من أصلها المتأدب وترفُّعِها عن المظاهر الشعبية الساذجة. ولم يمنعْ تمنّعي من الانضمام إلى الطريقة أعضاءَها من قبولي بينهم صديقًا وعضوًا عاملاً غيرَ مؤاجر كما يقولون. ولم أخبرْهم ولم أخبرْ أهلي بأنّي امتهنتُ الرقص، خاصةً الرقص الصوفي التقليدي، وأنّي في مهنتي الجديدة أطوّر ما تعلّمتُه وأكيِّفه من أجل جمهور المهرجانات والاحتفالات. بل تركتُهم يظنّون أنّي موظّف عادي يعمل من الصباح حتى بعد الظهر في مكتب في وزارة الثقافة. وها أنا اليوم راقصُ الذِّكْر الأولُ، بل والوحيدُ، في وزارة الثقافة، وعمادُ فرقتها الصوفية التقليدية التي تُحْيي ليالِيَ رمضان في قصر ثقافة الغوري، وهي ليالٍ ناجحةٌ يُقْبل عليها العديدُ من الفنانين والأدباء والأجانب المقيمين والزائرين. ولكنّي ما لهذا أَرْقص، بل لأُرضي هذه الجذوةَ المجنونةَ والمتأجّجةَ في صدري؛ جذوةٌ لا تَهْدأ إلاّ عندما أَدْخل حلبةَ الرقص، أيةَ حلبةٍ، وأبدأ بالرقص، أيِّ رقصٍ، وأَشْعر بالدم يتدفّق بقوةٍ في عروقي، وبجسدي يتوتّر، وبقدميّ تَرْسخان في الأرض كأنّهما تشتبكان بها أو تتّحدان معها

❖ ❖ ❖

لمّا وصلنا أمام القهوة انتبهتُ من خواطري وبدأتْ عيناي بالتفتيش عن باقي أفراد الفرقة. كانوا ما يزالون في مقاعدهم يحاولون جذبَ آخر نَفَسٍ من جوزاتهم. جاءوا بالتتابع: العجوزان أولاً، عم عبد العزيز وعم محمود، مقوَّسَي الظهر وحليقَي الرأس وغريبَي السحنة، وألقيا التحيةَ بصوتٍ عالٍ، ثم صَعَدا إلى الكرسي الخلفي وارتصا على طرفه ليفْسحا المجالَ للآخرين، ووَضعا المرأتيْن الصَّدَفَ الكبيرتيْن في صندوق السيارة خلفهما. وجاء بعدهما طارق وعمر معًا؛ فهما لا يَفْترقان، بل يقفان معًا أثناء العرض نفسه ويلعبان معًا الأول على طبلته، والثاني يتابعه على الرق. صعدا وهما يضحكان لنكتةٍ لا يَعْرفها أحدٌ غيرهما، وسلّما بصوت أجشّ: «سلام يا عم عيد، مساء الخير يا شيخ ياسين» (فهما يصرّان على تسميتي بالشيخ ياسين، وأنا أَقْبل ذلك منهما تحببًا ودفعًا للنقاش). وجلسا كعادتهما على الكرسي النصفي ووضعا آلتيْهما على حضنيْهما. ثم تلاهما ثلاثيُّ عازفي المزمار، محمد وعوض وسعيد، بوجوههم المنفوخة وأنوفهم المفلطحة وعيونهم اللامعة، فسلّموا وتوزّعوا على الكراسي المتبقية. وهكذا اكتمل شملُ الفرقة، باستثناء ضاربَي الطبلة أحمد وحسين اللذيْن يُقيمان في الجمالية، وهما بالتالي يأتيان إلى الغورية على الأقدام.

أَغْلق عوض باب السيارة الكبير وانطلقنا. أرخيتُ عينيّ وعدتُ إلى تركيزي، محاولاً تجاهلَ الحديثِ والضحكاتِ ورائحةِ المعسّل الشديدةِ التي ملأت السيارةَ. احترم الشبابُ صمتي كالعادة وتركوني لتأمُّلاتي. ولم يكلّمني أحد منهم؛ فهم يعتبرونني غريبًا عنهم ولكنّهم يقدّرون لي أنّه لولا براعتي في الرقص لما كان هناك فرقةٌ ولا عرضٌ ولا ماهيةٌ إضافيةٌ تُنْعش ميزانياتهم المحدودةَ التي تُستنزف بشكلٍ خاصّ في رمضان.

ولجتُ السيارةَ من شارع صلاح سالم إلى شارع الأزهر. ووقفنا ككلّ ليلةٍ أمام الشاويش المسؤول عن موقف السيارات الرسمية عند ميدان الحسين. ثم نزلنا وحاولنا شقّ طريقنا في الزحام من غير أن نَلْفت النظرَ إلى أنفسنا. ولكنّ ذلك كان مستحيلاً بسبب ثيابنا المميزة؛ فنحن جميعًا نرتدي سراويلَ فضفاضةً وقمصانًا بيضاء، فوقها ستراتٌ حمراء مزركشة، ولبعضنا عماماتٌ ملوّنة (أما أنا فلا

أغيِّر عمامتي البيضاءَ أبدًا). ونحن بالإضافة إلى ذلك نَحْمل الطبولَ والمزاميرَ والمرآتيْن الكبيرتيْن، الأمر الذي لا بدّ أن يثير الانتباهَ في ذلك الحشر الذي علينا اجتيازُه كلّ يوم.

وصلنا إلى الغورية، ومررنا من أمام السبيل، لننعطفَ يمينًا داخلين من باب القصر الصغير. وبدخولنا وإغلاق الباب خلفنا، خفّ الضجيجُ حولنا. عَبَرْنا الحديقةَ في الظلام تحت المقعد القبطي الداخلي بأقواسه الأربعة، لنَصْعد إلى الغرفة الخلفية التي أضافتْها وزارةُ الثقافة للفنانين وفتَحَتْ منها بابًا على الدهليز المُوصِلِ إلى «الخانقاه» كما كانت تُعْرف قديمًا أو «المسرح» كما أَصْبح يُعْرف مؤخّرًا.

انضمّ إلينا أحمد وحسين في الغرفة، وجلسنا جميعًا نَسْتجمع أنفاسَنا بعد العبور المزدحم والمتوتِّر، ونهيِّئ أنفسَنا للعرض القادم. تطلّعنا حولنا نفتِّش عن عمّ إبراهيم الفرّاش، الذي صارت وظيفتُه اليوميةُ أن يَجْلب لنا الشايَ قبل العرض. دخل عم إبراهيم مع برّاد الشاي الكشري، وابتدأ بتوزيع كؤوسه الضرورية لإحيائنا وإرواءِ عروقنا. ثم خرج وتَرَكنا نُكْمل تحضيرنا. ولكنّه سرعان ما عاد ليخبرنا بأنّ وقت العرض أَزِفَ. قام عم عبد العزيز وعم محمد فأصلحا هندامهما ووقفا جنبًا إلى جنب، وأَمْسك كلٌّ منهما مرآتَه ورفعها عاليًا فوق رأسه. وتلاهما الطبّالون الأربعةُ، ثم الزمّارون الثلاثة. وابتدأ الرتل بالتقدّم ببطء على عزفٍ خافتٍ وحزينٍ ورتيبٍ نوعًا ما وخرجوا وغابوا عن بصري.

بعد قليل وَصَل إلى سمعي تصفيقُ الحضور عندما دخل الرتلُ إلى المسرح، تلاه مباشرةً الإيقاعُ السريعُ الذي أدّاه حسين ـ أقربُ أفراد الفرقة إليّ ـ على طبلته الصغيرة إعلانًا عن بدء العرض. تخيّلتُ وجهَه الجامد، وفمَه المزمومَ، وخديْه الناعمَي الحلاقة، وجبهتَه العريضة، وعينيْه البراقتين وهما تهيمان بين الجمهور بحثًا عن «حِتّةْ سُكّرة» كما يحبّ حسين أن يسمّي البنتَ الجميلة، خاصةً إذا كانت أجنبيةً وشقراءَ ومتجاوبةً وطريةً، لكي تستقرا عليها طوال فترة العرض، فتدلعاها، وتهدهداها، وتنسجا معها حكاياتٍ وحكاياتٍ، قبل أن تتهاوى كلُّ الرموز والغمزات والوعود الصامتة مع نهاية العرض وعودةِ الفتاة الجميلة إلى عالمها وعودةِ حسين إلى واقعه وهمومه وأمِّ عياله والأطفالِ السبعةِ الذين ينبغي عليه أن يؤمِّن لهم خبزَهم كفافَ يومهم، كلّ يوم.

علا الإيقاعُ، وتداخلتْ أصواتُ المزامير والطبلات وبدأتْ بالتسارع. ثم هَدَرَ طبلُ أحمد، قائدِ المجموعة غيرِ الرسمي، الذي لا شكّ وأنّه قد انتصب الآن وسط الفرقة واستَلَم زمامَ القيادة، يَعْزف عزفًا منفردًا وسريعًا ومُحْكمًا، ثم يعود ليَتْبع إيقاعَ المجموعة، لكي يَنْفصل عنها ثانيةً بعد هنيهة، يُسْرع من إيقاعه ويَنْطلق في رفّةٍ من الطلقات السريعة، متناغمًا دومًا مع خلفيّته، لكي يعود إليها ويصل ما قطع من إيقاعها. كلُّ ذلك وعيناه الخبيثتان والنطّاطتان والمتكلّمتان تقريبًا تدوران في محجريْهما وتجحظان إلى الأمام مع انحناءٍ خفيفٍ إلى الأرض كلّما تطلّع باتجاه جمهوره ـ الذي لا بدّ وأنّه بدأ الآن بالغليان ـ كما لو كان يحدِّق في نقطة خيالية انتصب فيها مايسترو صغيرٌ جدًا يراه والجمهورُ لا يراه ويَسْتلهم منه حركتَه الإيقاعيةَ التالية. وكان همودُ صوت طبلة أحمد وعودتُه إلى المجموعة إيذانًا لي بقرب حلول دوري. وكنتُ حتى تلك اللحظة جالسًا في زاويتي، وعيناي مغلقتان، أدير كأس شاي بلا انتباه في يدي على نغمات الفرقة. قمتُ وعدّلتُ من وضع العمامة على رأسي، وتأكّدتُ من أنّ السبلة المرخّية منها تَنْزل كالذؤابة على مؤخّرة رقبتي تمامًا. شَدَدْتُ طبقاتِ التنانير الثلاثة حول خصري، واتّجهتُ بخُطًى موزونة وبطيئة باتجاه المسرح.

❖ ❖ ❖

عندما دخلتُ المسرح واجهتْني صفوفُ اللمض الشديدة الإضاءة، المسلّطة على تلك البقعة، فأَعْمتني لوهلة. وكالعادة شتمتُها في قلبي، وذكّرتُ نفسي للمرة المئة بأنْ أَطْلب إلى مدير المسرح إمّا إضعافَ نورها أو إعادةَ توزيعه بحيث يغطّي مساحةً أكثرَ من البؤرة الصغيرة التي تُلْهبها الآن. رَمَشتُ عدة مرات. ثم فتحتُ عينيّ وأدرتُ رأسي على الحضور وأنا أحنيه قليلاً مُحيِّيًا ومُجيبًا على تصفيقهم. درتُ حول الحلبة الدائرية سريعًا وأنا أَلْعب بالصنجات في يدي وأقفز كلّ ثلاث خطواتٍ على وقع الطبول. نظرتُ باتجاه حسين الذي أحسب

أنّه جَرَدَ الجمهورَ واستقرّ رأيُه على «حتّة السكّرة بتاعت اليوم» لكي يدلّني عليها؛ فأنا أَتْبع أسلوبَه في التركيز على وجهٍ وضّاح أو عينين جذابتين أو ثغر بسّام، ولكنّي على عكسه لا أَدْخل مع الجميلة في حوار صامت ـ فهذه ليستْ طريقتيَ في «التعليق.» ثم إنّي بحاجة إلى كل تركيزي لكي أؤدّي رقصتي، ولكنّي أحبُّ أن يَسْقط نظري على شكل جميلٍ ومغرٍ كلّما عدتُ من الاندماج مع أدائي وتفاعلي معه. وكثيرًا ما حصل أن جاءت الجميلةُ إليّ بعد العرض، وعرضتْ عليّ أن أَشْرب شيئًا معها ومع رفاقها. وكثيرًا ما قَبِلْتُ، وكثيرًا ما تطوّرتِ السهرةُ إلى أكثر من المشاركة في شراب. وكان حسين يغار من نجاحي مع السيدات، ولكنّه يعترف لي بأحقيّتي فيه، ولا يَنْسى وهو خارج بعد العرض (لكي يعود إلى أمّ علي والأولاد) أن يطبطب على ظهري وهو يقول: «أيوه يا عم. ماشية معك يا عم.»

غمز لي حسين باتجاه الصف الأول من المنصة المركزية إلى أقصى اليسار. تطلعتُ، فطالعتني عينان عسليتان واسعتان تذوبان رقةً ولهفة، ووجهٌ ناعمٌ محاطٌ بإكليل من الشعر الأشقر المحمرّ يرتاح على يديْن رشيقتيْن رائعتي الدقة دُهِنت أظافرُهما بالعسلي الغامق المنسجم مع العينين والشعر. لوحةٌ مرهفةُ الجمال تشعّ جاذبيةً. ابتسمتُ، فجاوبتني الخواجاية بابتسامة رقيقة مشجّعة. نظرتُ إلى حسين، الذي ابتسم بدوره وغمزني. أومأ إليّ ليهيِّئني للتوقف، وتوقفتْ يداه عن الضرب على الطبل، وتوقفت الموسيقى للحظة.

خطوتُ إلى مركز المسرح. فشعرتُ بالحرارة المنبعثة من الأنوار الكثيرة الموجّهة عليّ، فأغلقتُ عينيّ. تمتمتُ لنفسي كما علّمني المولوية: «مدَدَ يا سيدي، مَدَدْ.» وضعتُ كلّ ثقلي على قدمي اليسرى، ولمستُ الأرضَ بأطراف أصابع اليمنى، ثم رفعتُ يديّ إلى مستوى كتفي، وفتحتُ كفّي اليسرى باتجاه السماء، وضممتُ أصابع اليمنى ووجهتُها نحو الأرض. فتحتُ عينيّ ورفعتُ رأسي إلى أعلى، علامةً للفرقة على استعدادي للبدء. انطلق نايُ عوض بأنةٍ مبحوحةٍ، سرعان ما امتدت على شكل آهةٍ، ليجيبَها دقٌّ رتيبٌ وعميقٌ على طبل طارق الكبير. وضعتُ قدمي اليمنى على الأرض ببطء وشددتُها. وابتدأتُ بالدوران.

في البداية كان دوراني بطيئًا وخفيفًا. وكنتُ أشاهد صفوفَ المتفرجين تمرّ حولي بكلّ تفاصيلها. وكلّما واجهتُ المنصةَ المركزية أجدني أتلهّف لرؤية وجه الخواجاية، وأجدها تستجيب، ويفترّ ثغرُها عن ابتسامة ما فتئتْ تزداد اتساعًا وقبولاً واندماجًا. أخذتُ لنفسي ملاحظةً ذهنيةً بأنْ أكلّمها أيًا كان الوضعُ بعد العرض، وأَعْرضَ عليها قضاءَ السهرة معًا. بعد قليل جاءني عَوَض بالدفوف الأربعة. أخذتُها منه ودرتُ وأنا أشكلها بين يدي، أمامي وخلفي وفوق رأسي وفي فمي، محافظًا على توافق دوراني مع الإيقاع المتغيّر خلفي. عاد عوض وأخذ الدفوفَ وأعطاني البيرق الأخضر الذي كُتب على أحد وجهيْه «لا إله إلاّ الله» وعلى الوجه الآخر« محمد رسول الله »

فردتُه وأنا أدور، ومددتُه أمامي، فرفرف وهو يتطاير في الهواء حولي. بعد دقيقتين من اللفّ، طويتُه وأعطيتُه لعوض. بدأ الإيقاع بالتسارع، وبدأ دوراني ووجيبُ قلبي بالتسارع معه. حَلَلْتُ تكةَ أولى التنورتين الملوّنتين ورفعتُها فوق جذعي ومررتُها من بين ذراعي فوق رأسي، وأنا أُديرها حولي كطبق طائر. ثم أعطيتُها لعوض وفعلتُ الشيء نفسه بالتنورة الثانية، وأعطيتُها هي الأخرى لعوض وأنا أدور. كان العرق قد بدأ يَنْضح على وجهي، وابتسامتي التي تجمّدت على شفتي تَزْداد اتساعًا بحكم العادة والتدريب. وأنا أدور.

حلت اللحظة الحاسمة في العرض، وذلك عندما أبدأ بالدوران المتسارع ربعَ ساعة من دون أيّ حركات أو أدوات إضافية، قبل أن أتباطأ بالتدريج بضعَ دقائق، لأتوقّف وأَدْخل في سجالٍ حركيٍّ مع طبلة أحمد بضعَ دقائق أخرى، وينتهي العرض. هذه الدقائق العشرون هي ما أتحضّر له كلّ يوم بالتمرين والتركيز وتصفية الذهن والهدوء الداخلي؛ فهنا يتبيّن الراقصُ الأصليُّ والمحترفُ من المدّعي. هناك الكثيرون من مدّعي الدَرْوشة الذين يُمْكنهم أن يدوروا بضعَ دقائق بمساعدة التنانير والدفوف والبيارق والزعيق، ولكنّ الراقص الحقيقي هو ذلك الذي يُمْكنه أن يركّز ويدورَ خمس عشر دقيقةً أو أكثر من دون أن يَقْطع دورانَه. وفي هذا المجال كنتُ الوحيدَ بين راقصي مصر... طبعًا باستثناء المولوية الأصليين.

علا صوتُ الطبول وانتظمتْ في إيقاع واحد، وتبعتْها المزاميرُ، لتصبّ جميعُها في تيار صوتي واحد ومتكرّر: تيك تاك بوم؛ تيك تاك بوم. رفعتُ رأسي إلى الأعلى وهمستُ ثانيةً: «مَدَدْ يا سيدي، مَدَدْ،» وأسرعتُ بدوراني. وابتدأتْ وجوهُ الحضور تمرّ أمام عيني بسرعة بحيث إنّي لا أكاد أسجّل شكلَ وجهٍ ما على شبكية عيني إلاّ وأجده قد اختلط بوجهِ الذي يليه وانطبعتْ معالمُه على معالم الأول، كأنْ أرى وجهَ

فتاة مثلاً وقد انطبع عليه شاربا جارها! ولم أعد أميِّز وجهَ حسنائي عندما يصل نظري إلى المنصة المركزية. وسرعان ما ضاعت عليّ الوجوهُ تمامًا، وحلّ محلّها مجالٌ لونيٌّ متغيّرٌ ومجنون، يَنْساب حولي ويتلوّى ويغلِّفني بألف لون ولون. وأنا أدور وأدور وصرتُ أسمع نبضات قلبي وهي تتسارع وتعلو مثلَ صوت مترو الأنفاق عندما يَقْترب من محطة ميدان التحرير هادرًا ومزمجرًا. انساح العرقُ الغزيرُ على وجهي ورقبتي، وسال من فتحة ثوبي على صدري، وأحسستُ بقطرات منه تَنْساب على ساقي وتصل إلى كعبي. ابتدأتْ ظواهرُ الإرهاق الطبيعي الذي تعودتُ مقارعته يوميًا بالتسلُّل إلى ذهني: فهنا عضلةٌ تئنّ، وهنا ساقان تهدِّدان بالتيبُّس، وهنا ظَهْرٌ ينوء بحمله، وهنا ذراعان ممدودتان تحتجّان وتطلبان الرحمة. ولكنّي استمررتُ بالدوران من دون أن يَظْهر على وجهي أيُّ دليل على العذاب الداخلي الذي كنتُ أكابده. والعرق ينزّ على وجهي وأنا أغلق عينيّ وأفتحهما لأبعده عنهما وصرت، كما كلّ يوم، أسكِّن نفسي وأعلِّلها بقرب الفرج: ست دقائق أخرى، خمس دقائق ونصف، خمس دقائق. وأدور على الوقع أسرعَ وأسرعَ وأسرع.

فجأةً حصل شيء لا يُمْكنني وصفُه بأكثر من أنّه سحريّ وخارق. اختفت خطوطُ الألوان المجنونة التي كانت تدور حولي وحلّ محلّها نورٌ أبيض وشفاف وعذب ينير بأقوى من ألف شمس ولكنّه لا يعمي العينَ ولا يشعّ حرارةً. أحسستُ بنسيم رقيق يداعب وجهي ويجفِّف عنه العرق يهبّ من حيث لا أدري ويغيب حيث لا أدري. واختفت كلُّ أصواتِ الطبول والمزاميرِ وهمهماتِ الحضور، بل اختفى الموسيقيّون والحضورُ أنفسهم والقاعةُ والغورية كلُّها، ولكنّ الإيقاع الموزون الذي كنت أدور عليه بقي على شكل إحساس في داخلي بلا صوت. وذهبتْ عني آلام، وتحلّلتُ من ثقل أعضائي المتوتّرة والمتعبة التي ما فتئتْ تدور وأنا أدور معها من دون جهد أو إرهاق. وشعرتُ براحة وطمأنينة لم أشعر بمثلهما من قبل، تغشياني وتتخلّلان مسامي. غمرني شعور جارف لا بداية له ولا نهاية وسمعتُ هاتفًا يقول: «إنّ المحبين إذا شربوا طابوا ثم طربوا، إذا طربوا قاموا، إذا قاموا هاموا، إذا هاموا طاشوا، إذا طاشوا عاشوا.»*

وغبت عن الوعي وأنا أبتسم

كامبردج، ماساتشوستس

* ـ من نص الكتابة المنقوشة دائر صحن مدرسة الفردوس في حلب التي أنشأتْها عصمة الدين، ضيفة خاتون، ابنة السلطة الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وزوجة السلطان الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين بن أيوب عام ٦٣٣ للهجرة